التوسع البرتغالي الإسباني في العالم
خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر

الأستاذ: عبد الحكيم تركية
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

إنّ ما ميّز أوربا منذ القرن الخامس عشر هو وعيها بإمكاناتها الجديدة وقدراتها الكامنة في الإنسان، الذي بدأ تدريجيا في تفجير طاقاته من أجل إخراج أوربا من الانعزال وجعلها تستعيد مكانتها السابقة في عهد الرومان والبيزنطيّين الذين هيمنوا على البحر المتوسّط وتجارة الشرق ومن ثم اكتساح العالم. البرتغاليون في الشرق: كانت البداية للبرتغاليّين الذين كانوا في أحسن رواق، فانطلقوا في مشروعهم البحري التوسعي من أجل إيجاد طريق بديل يقودهم إلى مصادر الثروة في الشرق بالمرور على سواحل غرب أفريقيا، فاحتلوا مدينة سبتة المغربية سنة 1415م، ومنها واصلوا مشروعهم التوسعي نحو بلاد الشرق وبلاد السودان إلى أن وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح سنة 1487م.

وجد البرتغاليون في مشروعهم التوسعي كل التشجيع والمساندة من الكنيسة التي حثّتهم على مضاعفة جهودهم للوصول إلى مصادر تلك التجارة، والقضاء على الإسلام بتجميع جهود الأوربيّين وجهود النصارى في البلاد الإسلامية وبلاد الشرق على الخصوص من خلال الاتصال بمملكة القديس يوحنا في الحبشة للتعاون معها لتحقيق هذا الهدف.[1]

وشهد أيضا القرن الخامس عشر ظهور قوة جديدة وهي الدولة العثمانية التي تمكنت من هزيمة أعدائها وفرض نفسها كقوة يحسب لها ألف حساب في الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ومنطقة البلقان التي أصبحت تعيش في النصف الثاني من هذا القرن وطيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر أجواء حرب صليبية جديدة سببها التوسع العثماني في المنطقة الذي قضى على الإمبراطورية البيزنطية (395- 1453م) وريثة

الإمبراطورية الرومانية (22ق.م-395م) بفتحهم مدينة القسطنطينية يوم 29 مايو 1453م بعد حصار دام ثلاث وخمسين (53) يوما.[2]

دفع استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في 29 مايو 1453م، وغلق طريق الحرير نحو الشرق، الأوربيّين إلى التحرك و الاستعداد لاستعادة مكانتهم في تجارة الشرق، ولما لا انتزاعها من أيدي أعدائهم المسلمين وحلفائهم الهنود والبنادقة. وكان وراء هذا التحرك التغييرات التي أحدثتها النهضة الأوربية، التي جعلت من منتجات الشرق ضرورة بعد أن كانت من الكماليات. فالبن والتوابل من قرفة وفلفل وجوز الطيب التي كانت في العصور الوسطى خاصة بموائد كبار النبلاء، أصبحت في متناول أيدي أفراد الطبقات الجديدة في المدن والريف، كما أنّ عقاقير الشرق من أفيون وكافور وصمغ قد غدت مع تقدم وسائل العلاج في أوربا مطلبا ملّحا وأساسيا لكافة المناطق. فزيادة الطلب أدّى إلى ارتفاع الأسعار، فتطلّع الأمراء في أوربا للظفر بنصيب من تلك التجارة وقطع طرقها التي تمر بالعالم الإسلامي، واستحداث طرق أخرى بديلة لإضعاف تلك المناطق اقتصاديا.[3]

دفع المطلب المادي، أي الدافع الاقتصادي، الأوربيّن إلى انتهاج سياسة التوسع و الغزو باستعمال مختلف الطرائق والوسائل التي بحوزتهم من أجل الهيمنة على مصادر تجارة الشرق من توابل ومعادن ثمينة. وفي نفس الوقت البحث عن مناطق وأسواق جديدة للتوسع الأوربي، وبما أنّ نفوذ الكنيسة كان ما يزال قويا في هذه الفترة، فإنّ تبرير الفعل التوسعي لأوروبا كان دينيا بالدرجة الأولى متمثلا في نشر المسيحية وإدخال الشعوب البربرية في الديانة المسيحية. وهو ما جسّدته الكنيسة الكاثوليكية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية في 29 مايو 1453م وغلق طريق الحرير في وجه الأوربيّن نحو الشرق، بحيث استنجدت الكنيسة الكاثوليكية بجميع المسيحيّن وعلى رأسهم البرتغاليّن وحثّتهم على بذل ومضاعفة الجهود للتصدي للمسلمين ببسط سيطرتهم واحتلال أي أرض لا يحكمها النصارى وقتال واستعباد[4] وإخضاع للمسيحية كل شعب لا يحكمه النصارى من خلال المرسوم البابوي الذي أصدره البابا نيقولا الخامس (1447-1455) في الثامن

يناير1454م الذي فوّض فيه للبرتغال احتلال أي أرض وقتال كل شعب لا يحكمه النصارى، كما أوجب ضرورة التعاون بين البرتغال ونصارى العالم للقضاء على الإسلام.[5]

خضعت المناطق التي هيمن عليها البرتغاليون لعمليات سلب ونهب لا رحمة فيها وعلى الخصوص أفريقية من خلال السيطرة على الطرق التجارية التي كانت تنقل الذهب إلى شمال أفريقية وحولوها إلى الساحل الغربي للقارة مما كان له أكبر الأثر في تدهور المدن التجارية في شمال أفريقية والبحر المتوسط و تقليص كميات الذهب التي كان يحصل عليها العرب والمسلمون. وكان حصن "المينا" الموجود في غانا مركزا لتجميع كميات الذهب المنهوبة. بل إنّه بسبب الأرباح الطائلة التي جناها البرتغاليون، أطلق على ذلك الإقليم اسم ساحل الذهب.[6]

وهناك أيضا المحاصيل الاستوائية مرتفعة القيمة كالعاج والمحاصيل الزيتية التي حوّلوا كميات هائلة منها للقارة الأوربية وباعوها بأسعار مرتفعة مقابل بعض السلع التافهة كالخمور[7] والزجاج وبعض الأسلحة القديمة والبارود، يضاف إلى ذلك التوابل التي جلبوها من الهند وبلاد الشرق الأقصى، وحقّقوا من ورائها أرباحا خيالية.[8] وطبقا لبعض المصادر إن فاسكو دي غاما (1469–1524) قد عاد إلى لشبونة عام 1499م ومعه حمولة من البضائع قيمتها أكثر من ستين (60) ضعفا من تكاليف البعثة.[9]

إلا أنّ أضخم المغانم التي حقّقها الغزاة البرتغاليون من أفريقيا تمثّلت في الأرباح الضّخمة والخيالية التي حقّقوها من تجارة الرقيق التي كانوا أول المتجرين بها منذ عام 1442 وفاقت أرباحها بكثير الأرباح التي حقّقوها من نهب الذهب و تجارة التوابل والسلع الشرقية. فقد ألقى البرتغاليون بكل ثقلهم في هذا الميدان، وخصوصا بعد تزايد الطلب على الأيدي العاملة في أوربا والعالم الجديد بالخصوص، وكانت مصادر اقتناص الرقيق هي غينيا وغانا والكونغو والموزمبيق وأنغولا.[10]

ومن الثابت تاريخيا أيضا أنّ الأرباح الضخمة التي حقّقها البرتغاليون من هذه التجارة قد أسالت لعاب رأس المال التجاري في كثير من دول القارة، فتأسست لذلك شركات اختصّت في هذه التجارة مثل شركة

الهند الغربية الهولندية سنة 1621م وشركة السنغال الفرنسية. وبذلك كانت تجارة الرقيق أول استثمار دولي لرأس المال على نطاق واسع. وقد أثرى الكثير من الأوربيّين نتيجة استثمار أموالهم في شراء السفن لنقل العبيد والسلع الأفريقية.[11]

– **الإسبان في الغرب**: حفّزت النجاحات الأولى التي حقّقها البرتغاليون في عمليات التوسع على السواحل الغربية لأفريقيا باحتلالهم سبتة سنة 1415م ووصولهم إلى سواحل السنغال سنة 1444م ثم احتلالهم جزر الرأس الأخضر سنة 1456م، الإسبان على التحرك و بذل مزيد من الجهود للانضمام إلى مسعى البرتغاليين ودعم دعوة الكنيسة الكاثوليكية لكل المسيحيّين في العالم للقضاء على الإسلام ونشر الإيمان المسيحي، وانتزاع تجارة الشرق من أيدي المسلمين. استجاب ملك إمارة أراغونة فرديناند الخامس (1452–1516) وملكة إمارة قشتالة إيزابيلا الأولى (1451–1504) سنة 1469م بزواجهما و توحيد مملكتيهما وجهودهما للقضاء على الإسلام، ومواصلة مشاريعهما في عهد جديد جاعلين من حرب الإسلام وتخليص ما تبقّى من أراضي شبه الجزيرة الإيبرية من بقاياهم وانتزاع تجارة الشرق من أيديهم من أبرز أهدافهما، فبعد ربع قرن جسدا ذلك بسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بين أيديهم في يناير 1492م.

واصل الإسبان تنفيذ مشاريعهم للقضاء على الإسلام، من خلال استراتيجية توجيه ضربات للإسلام والمسلمين في عقر ديارهم بشنهم حملات عديدة على سواحل شمال أفريقيا واحتلال العديد من المدن الساحلية، منها مدينة مليليه المغربية سنة 1497م ثم تلتها مدينة وهران 1509 وبجاية 1510 إلخ.

إنّ دعوة الكنيسة لجميع النصارى للمساهمة في تجسيد مشروع القضاء على الإسلام والمسلمين ونشر المسيحية، وضّحها تصريح البابا ألكسندر السادس (1492–1503) بقوله: "ينبغي للكاثوليكية والدين أن ينتشروا في كل مكان وينبغي أن تصبح الشعوب البربرية –يقصد الشعوب غير المسيحية– منظومة تحت راية الإيمان."[12]

اهتم الإسبان في نفس الوقت بالتنصير و التجارة والذهب، ولذلك مباشرة بعد طرد المسلمين من آخر معقل لهم في غرناطة في يناير 1492م، بدأوا في التحضير لمغامرة كريستوف كولومب (1451–1506) نحو الشرق. وفي هذا الإطار نسجّل أنّ الأوربيّين أعطوا لأنفسهم الحقّ في تبرير تدخلهم في شؤون الآخرين واحتلال أراضيهم وامتلاكها ونهب ثرواتها، وتحويلهم عن عقائدهم وديانتهم بل واستغلالهم واستعبادهم وإبادتهم[13]، كما فعل ملكا إسبانيا إيزابيلا وفرديناند اللذان أصدرا في 30 أفريل 1492م رسالة براءة لكريستوف كولومب قدّما له فيها كل الدعم والمساندة في مشروعه الرامي لاكتشاف وإخضاع وغزو وامتلاك[14] الأراضي الواقعة في المحيط واليابسة، وتوليته نائبا للملكة وحاكما لتلك الجزر واليابسات، ومنحا له حقّ التصرف وإصدار الأحكام في مختلف القضايا المدنية والإجرامية، كما منحاه حق معاقبة مرتكبي الرذائل والمنكرات.[15]

كان تفكير الغزاة الأوربيّين المتجهين إلى أفريقيا وآسيا وإلى العالم الجديد منصبا على الثروة أكثر من شيء آخر. وقد بلغ الطمع بالذهب والفضّة والاحتياج إليهما في أوربا درجة لم يعد المتوافر منهما قادرا على إشباع ذلك الطمع والاحتياج، ولهذا سعت أوربا إلى انتزاعهما بالنهب والسرقة من الشعوب التي زعم أنّها تملك منهما ما يزيد عن اللزوم.

"فالذهب" كان تقريبا كل ما يبحث عنه المغامرون، وفي هذا كتب فردريك إنجلز يقول: "بحث عنه البرتغاليون على السواحل الأفريقية و في الهند وكل الشرق الأقصى، وكان هو الكلمة السحرية التي ساقت الإسبان إلى أمريكا عبر المحيط الأطلسي، وهو أول ما كان الرجل الأبيض يسأل عنه ساعة تطأ أقدامه شواطئ مكتشفة حديثا."[16].

كان هدف الأوربيّين في البحث عن الذهب و الفضّة من أجل انعاش وتقوية اقتصادهم، وتقوية أنفسهم من جميع النواحي. وهذا يعني أنّ التوسع الأوربي كان هدفه امتلاك الثروة من أجل اكتساح العالم ماديا وثقافيا وحضاريا. ولذلك ظل الذهب محور مشروع التوسع الإسباني –

البرتغالي في العالم الجديد وآسيا وأفريقيا، وهو ما أفصح عنه كولومب بقوله: إنّ الذهب كان أول شيء في العالم.[17]

إنّ أهمية ومكانة ودور الذهب في تحقيق ما يصبو إليه أوربيو عصر النهضة، عبّر عنها كريستوف كولومب في رسالة أرسلها إلى الملكة إيزابيلا قائلا: "إنّ الذهب شيء ساحر ومن يملكه فقد امتلك ما يرغب فيه، بل يستطيع المرء بالذهب إدخال الأرواح الجنّة."[18]

ولذلك كان هم القادمين الجدد إلى المنطقة هو البحث عن المعادن النفيسة الذهب والفضة[19]، بعد أن شاهدوا أنّ المعابد التي أقامها الهنود الحمر تزخر بكميات هائلة من التحف المصنوعة من الفضّة والذهب مما يدل على أنّ هناك مناجم لها، ولذلك حرصوا على الوصول إليها. ومن أجل ذلك توالت بعثات وحملات المغامرين إلى المنطقة من أجل الظفر بها ومنهم فرناند كورتيز (1485–1547) الذي قال: لم آت إلى هنا فلاحا لزراعة الأرض، وإنّما أتيت باحثا عن الذهب.[20]

إنّ تزايد الطلب على الذهب أو العطش للذهب الذي عرفته أوربا خلال القرن الخامس عشر في مقابل قلة العرض، لأنّ موارد المناجم في أوربا أصبحت لا تفي بالحاجة، هو الذي دفع الأوربيّين نحو آسيا[21] وأفريقيا ومناطق أخرى لتلبية حاجاتهم. ففي العالم الجديد بدا جشع الأوربيّين وطمعهم في الذهب غير مفهوم بالنسبة للهنود الحمر الذين لم يكونوا يستخدمونه سوى كمادة لصنع الحلي ولأغراض فنية. هذا الجشع صوّره أحد الأزتكييّن قائلا: عندما أصبح الذهب بحوزتهم انفجرت وجوههم بالضحك وتألقت عيونهم جذلا، كانوا مبتهجين، وهجموا كالقرود على الذهب يتحسّسونه بأصابعهم، واستولى عليهم الفرح، وأصابت قلوبهم أيضا عدوى بريق الذهب. كانوا جياعا وظمأى للذهب وحده، هذه حقيقة، انتفخوا جشعا وطمعا بالذهب، ونبشوا التراب بحثا عن الذهب كالخنازير الجائعة.[22]

بعد عودة كريستوف كولومب إلى إسبانيا في مارس 1493م مصطحبا معه الهنود الحمر وسبائك الذهب ظنّ وتوهم أنّه وصل إلى آسيا، فبادرت الكنيسة الكاثوليكية لتبنّي أطماع الإسبان التوسعية وإضفاء الشرعية

عليها. فأصدر البابا ألكسندر السادس(1492–1503) في 04 مايو 1493 مرسوما بابويا (bulle inter cætera) منح بوجبه ملكي إسبانيا إيزابيلا وفرديناند كل الجزر واليابسة التي عثروا عليها وسيعثرون عليها والمكتشفة والتي سيكتشفونها إلى الغرب والجنوب من خط يمتد من القطب الشمالي، أو الشمال، إلى القطب الجنوبي، أو الجنوب، والواقعة على بعد مئة (100) فرسخ إلى الغرب والجنوب من جزر الأزور وجزر الرأس الأخضر. كما أعطى ألكسندر السادس وقبل أن تحوّل إلى الأبد كل السلطات وحقوق التصرّف في هذه الجزر واليابسات إلى الملكين وورثتهما وخلفائهما.[23]

ونسجّل أيضا أنّ ألكسندر السادس لم يغفل في مرسومه أهمية توسيع الإمبراطورية المسيحية، ونشر الإيمان الكاثوليكي بين سكان هذه الجزر واليابسات. وفي نفس الوقت أشاد ونوّه بمجهودات وإنجازات كولومب في المناطق المكتشفة، المتمثلة في بناء وتشييّد على إحدى الجزر برجا محصّنا بما فيه الكفاية، وإبقاء به بعض المسيحييّن من أتباعه لحراسته ومواصلة البحث عن جزر ويابسات بعيدة وغير معروفة. كما أنّ ألكسندر لم ينس ذكر وتعداد ما تزخر به هذه المناطق الإسبانية الجديدة من ثروات مختلفة ومتعدّدة منها الذهب و العطور، إلى جانب عدد كبير من الأشياء الثمينة من مختلف الأصناف و الأنواع.[24]

– **البرتغال وإسبانيا تقتسمان العالم**: احتدم النزاع بين البرتغال وإسبانيا بعد عودة كريستوف كولومب إلى إسبانيا في مارس 1493، وانتشار خبر وصوله –كما توهم وظنّ– إلى سواحل شرق آسيا، مما أثار مخاوف البرتغال على مستقبل مشاريعها التوسعية في المنطقة. فدخل البلدان في مفاوضات برعاية البابا ألكسندر السادس لتحديد مناطق ومصالح البلدان في العالم المعروف آنذاك، بسبب أنّ البلدين لم يكونا على إدراك ومعرفة جغرافية دقيقة، وتوصلا البلدان إلى حل أرضى الطرفان وهو اتفاقية توردیسیلاس في 07 جوان 1494 حدّدت خطا وهميا يقع غرب جزر الرأس الأخضر بنحو ثلاثمائة وسبعين (370) فرسخا يمتد من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، وجعلته حدا فاصلا بين ممتلكات الإسبان في الغرب ما عدا البرازيل، و ممتلكات البرتغال في الشرق إضافة إلى البرازيل

في الغرب. بارك البابا ألكسندر السادس (1492–1503) هذا الاتفاق الذي وضع حدا للخصام بين الطرفين وجعلهما يركزان جهود كل منهما في اتجاه لا يمكن أن يصطدم بالآخر.[25]

كانت هذه الاتفاقية وبالا على شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا. ففي الشرق تمكّن البرتغاليون بقيادة فاسكو دي غاما (1469–1524) من اجتياز رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند في 27 ماي 1498م، بعد أن فرضوا سيطرتهم على الأماكن التي وطئتها أقدامهم انطلاقا من السواحل الغربية إلى السواحل الشرقية لأفريقيا، و منها توغلوا إلى أقصى الشرق إلى الصين واليابان، وخاضوا معارك طاحنة مع العرب والمسلمين في شرق أفريقية. كما عملوا على تخليص المحيط الهندي من خصومهم وأعدائهم البنادقة والعرب والهنود في معركة ديو البحرية فيفري 1509م، وبذلك سيطروا على جزر التوابل و المراكز الاستراتيجية في المنطقة و منها مدينة غوا (Goa) بالهند التي سقطت بأيديهم سنة 1510م بمساعدة الهندوس، وخلالها عمد القائد البرتغالي ألبوكيرك (1453–1515) إلى قتل جميع سكانها المسلمين، وجعل منها عاصمة الإمبراطورية البرتغالية.[26]

وبعد تحصين مراكزهم بالهند انطلقوا إلى ملقا التي سيطروا عليها عام 1511 ثم جاء الدور على جزر امبوان وتيرنات وتيدور الإندونيسية عام 1514، وهي أغنى جزر إندونيسيا قاطبة بالتوابل. كما شملت سيطرة البرتغاليين هرمز عام 1515 ثم كولومبو عام 1519، وإلى غاية منتصف القرن السادس عشر شملت سيطرة البرتغاليين أجزاء كبيرة من سواحل أفريقيا من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي إلى سوفالا، موزمبيق، مومباسا في شرق أفريقيا على المحيط الهندي، ومنها إلى إندونيسيا، ومن الخليج الفارسي إلى بورما.

لقد أدت سياسة النهب والتقتيل التي انتهجها البرتغاليون في هذه الفترة إلى حصولهم على مغانم وثروات كبيرة و أرباح ضخمة من تجارتهم في التوابل والعبيد والسكر وغيرها تجمّعت لدى أفراد العرش البرتغالي والمغامرين وكبار التجار، فقد قدّر ألبوكيرك (1453–1515) أرباح

العرش البرتغالي بواحد مليون (1.000.000) كروزادوس، وأضحت لشبونة في النصف الأول من القرن السادس عشر أغنى مدينة في أوربا.[27]

وما يسجّل هنا أنّ الثروات التي كانت لدى البرتغال لم يستفد منها الشعب البرتغالي بل استفاد منها العرش وحاشيته والمغامرون والتجار الكبار، و لم توجّه لتطوير البلاد و خلق ثروة وطنية حقيقية، وهذا ما جعل الشعب البرتغالي يعيش المتناقضات فبينما بلادهم تستورد الرقيق من سواحل غينيا لتشغيلهم، نجد أنّ البرتغاليين كانوا يهاجرون نحو غرب إسبانيا بحثا عن العمل. كما أنّ البرتغال كان يستورد الحبوب والشعير من فرنسا وأفريقيا الشمالية وبلاد الفلندر (بلجيكا- ليل في فرنسا)، وأكثر من ذلك تعرضت وعرفت البرتغال أمراضا وأوبئة ومجاعات عامي 1503-1504 ثم الطاعون عام 1505.[28]

بعد ضم البرتغال إلى مملكة إسبانيا 1580-1640 وإقحامها في الحرب ضد إنجلترا وهولندا أصبحت المواقع البرتغالية في الشرق عرضة لهجمات الهولنديين الذين أسسّوا شركة الهند الهولندية المتحدة سنة 1602 واستولوا على ممتلكات البرتغال في المنطقة، لكن ضياع إمبراطورية التوابل عوضتها ثروات البرازيل المختلفة من سكر وذهب والماس. وعليه فإنّ استمرار وجود البرتغال كدولة مسيطرة ثم كأمة مستقلة باستثناء فترة 1580-1640 اعتمد على ثروات البرازيل بالدرجة الأولى و عبيد أفريقيا و هو ما وضحه أحد المؤرخين قائلا: "إنّ وجود البرتغال كأمة مستقلّة مرتبط أساسا بالثروات التي يحصل عليها من التجارة البرازيلية الذهب منذ 1684 و1718 والماس منذ 1728 مما سمح باستمرار الإمبريالية البرتغالية".[29]

أما في الغرب أقام الإسبان لأنفسهم قواعد ونقطة انطلاق في جزر الكاريبي وشرعوا في تعزيز سيادتهم وهيمنتهم على المنطقة وتوسيعها مستغلين طيبة سكان المنطقة وترحابهم بالوافدين الجدد، وهو ما كتب عنه كولومب في رسالة أرسلها إلى الملك والملكة قائلا: "ما أطيبهم إنّهم يعطون كل ما يملكون عن طيب خاطر، لا يصدّق المرء ذلك إلا إذا رآه رأي العين."[30]

استغل الرجل الأبيض الجشع الباحث عن الثروة طيبة وترحاب سكان المنطقة به لتحقيق أغراضه الدنيئة الخسيسة لينقضّ عليهم ويسلبهم ممتلكاتهم وأموالهم وثرواتهم ويهتك أعراض نسائهم ويرتكب في حقّهم جرائم يندى لها الجبين[31] مستعملا في ذلك الخديعة والعنف، وهو ما كشف عنه كولومب بقوله: "هؤلاء الرجال لا يحسنون استخدام السلاح ويكفي خمسون جنديا لإخضاعهم وحملهم على أن يفعلوا كل ما يريده المرء أن يفعلوا."[32]

استغل الإسبان امتلاكهم الأسلحة والبارود ليتوغلوا في الأراضي الداخلية بحثا عن كنوز الذهب ومناجمه، فنهبوا محتوياتها و استوطنوا البلاد بعد أن طردوا أصحابها إلى الغابات والجبال وشنوا ضدهم مجازر بشعة وحملات إبادة دامية سالت فيها الدماء بغزارة مستعملين في ذلك المدافع والبارود والخيل التي لم يعرفها سكان المنطقة. وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هنا حملة فرانسوا بيزار (1487–1541) الذي قاد حملة ضمّت مائة وثمانين (180) رجلا وسبعة وثلاثين (37) حصانا بين سنتي 1531–1535 على البيرو حاليا وهزم إمبراطورية الانكا ونهب محتوياتها وأباد سكانها. لقد استولى الغزاة الإسبان على إمبراطورية واسعة باستعمال وسائل الإرهاب والتقتيل الجماعي ضمت ما يزيد عن اثني عشر مليون (12.000.000) نسمة ومساحتها أزيد من مساحة كل من إسبانيا، فرنسا، ألمانيا والنمسا والمجر القديمة مجتمعة، وقضوا على إمبراطورية كانت قمّة في التنظيم وأعطت النموذج الحي في الإخاء والتعاون والإنسانية، والأخطر من هذا قيام المجرم بيزار مع جنوده يوم 29 أوت 1533 بحرق الإمبراطور أتاهوالبا حيا[33]

الخاتمة: إنّ سعي البرتغال ثم الإسبان لكسر الاحتكار الإسلامي لتجارة الشرق[34] واستحداث طرق جديدة لا تمر عبر العالم الإسلامي ليستفيد منها تجارها الذين سيتعاملون مع مناطق المنشأ مباشرة و تدر عليهم أرباحا وفيرة، جعل جنسيات أوربية أخرى تتطلّع لهذا الأمر منهم الإنجليز والفرنسيون. فمع استقرار الأوضاع بعد انتهاء حرب الوردتين (1455–1485) واعتلاء هنري السابع عرش إنجلترا (1485–1509) بدأ اهتمام

الإنجليز من جهتهم بالشرق، ولهذا الغرض أرسل هنري السابع البحّار الجنوي جون كابوت(1451–1498) وابنه سبستيان (1470–1555) على رأس سفينة تقل ثمانية عشر(18) بحّارا قاصدين الشرق، وبعد رحلة شاقة في المحيط الأطلسي دامت ستة (06) أسابيع اكتشفا سنة 1497 شبه جزيرة لبرادور على الساحل الشرقي لكندا التي ستكون من ممتلكات الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس. أما الفرنسيون فقد استثارتهم مغانم الإسبان من الذهب والفضّة القادمة من العالم الجديد، كما أنّهم كانوا غير راضين عن بنود معاهدة تورد سيلاس 07 جوان 1494 وانحياز الكنيسة الكاثوليكية إلى الإسبان والبرتغال وهو ما وضّحه تصريح ملك فرنسا فرانسوا الأول (1494–1547) لسفير إسبانيا قائلا: "الشمس تنير عليّ كما تنير على الآخرين، أريد معرفة بند وصية آدم الذي يقصيني من القسمة."[35]

لقد دفعت مغانم الغزاة الإسبان في العالم الجديد من الذهب والفضّة ملك فرنسا والدوائر المهتمة بالمال والثروة لاستئناف الرحلات البعيدة في المحيط الأطلسي. ولذلك قرّر فرانسوا الأول سنة 1534 إرسال أحد أشهر وأكفأ الملاحين الفرنسيّين في تلك الفترة جاك كارتييه (1491–1557) في مغامرة له في المحيط الأطلسي نحو الغرب من أجل اكتشاف مناطق جديدة[36] وبسط النفوذ الفرنسي عليها ولما لا الحصول على الذهب كما حصل عليه الغزاة الإسبان ومنهم بيزار.[37]

كما أنّ الهولنديين من جهتهم بعد انفصالهم في نهاية القرن السادس عشر عن إسبانيا كانت لهم نفس الأطماع فكانت توابل الشرق وجهتهم بحيث انطلقت في سنة 1595 أربع سفن من ميناء أمستردام بقيادة كورنوليس هوثمان (1565–1599) الذي تمكّن من بلوغ جاوة بإندونيسيا اليوم وأقام مركزا تجاريا، وعند عودته إلى أمستردام أعلم الحكومة بالإمكانيات التي تفتح أمام هولندا في المياه الهندية. ولذلك وضعت هولندا خطة لبناء ممتلكاتها وتنظيم وجودها بإنشاء شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة سنة 1602 وبقيت تحت هيمنتها إلى غاية خروجها سنة 1949. ومع التطور العلمي والاقتصادي الذي شهدته أوربا في القرون الثلاثة

اللاحقة السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر استكملت أوربا اكتساح العالم اقتصاديا وثقافيا ولغويا، وبعدما كان الاكتساح خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر برتغاليا وإسبانيا انضمت إنجلترا وفرنسا إلى القائمة. وعليه فالقوانين والتشريعات المعمول بها في المعمورة هي قوانين وتشريعات أوربية، ويمكننا أن نقول أخيرا أنّ العالم أصبح أوربي البوتقة.

– الهوامش:

1) د عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: محاضرات في تاريخ أوربا الحديث (عصر النهضة) منشورات ELGA مالطا 1999 ص153.

2)د عبد العزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون- الفرس- مسلمو الهند دار النهضة العربية بيروت 1411هـ - 1991م ص 25-51.

3) د عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: مرجع سابق ص 156.

4) إنّ دوافع استعباد سكان أفريقية هي الانتقام من المسلمين الذين فتحوا الأندلس وحكموا شبه جزيرة إيبيريا منذ سنة 92هـ (711م) إلى جانب الدافع الاقتصادي المادي. ولذلك أجازت الكنيسة في فترة يوجين الرابع و خلفاؤه حملات خطف الرقيق التي كان يقوم بها البرتغاليون. لمزيد من التفاصيل راجع: عايدة العزب موسى: العبودية في أفريقيا، مكتبة الشروق الدولية القاهرة الطبعة الأولى 1424هـ 2004 م ص 38 و ما بعدها.

5) د عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: مرجع سابق ص 15.

6) د رمزي زكي: التاريخ النقدي للتخلّف، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت صفر 1408هـ أكتوبر(تشرين الأول) 1987م ص 25.

7) من السلع التافهة التي تم إدخالها آنذاك ثم أصبحت من أهم الصادرات لأفريقيا و لا زالت إلى يومنا هذا تحظى بالترويج هي الخمور التي لم تضف أي قيمة مادية ولا إنسانية لأفريقيا، بل أغرقتها في دوامة التخلّف و التبعية. فهي "جريمة الجرائم" كما وصفها الكاتب روني ديمون في كتابه، الانطلاقة السيئة لأفريقيا السوداء ص 23.

René Dumont: l'Afrique noire est mal partie, éditions du seuil paris 1962p 23.

كما أنّ هذه السلعة التافهة تسبّبت و تتسبب حاليا في الكثير من الأمراض في مقدّمتها داء تشمّع الكبد، و هو من أعلى نسب الأمراض المنتشرة في أفريقيا السوداء نتيجة الإفراط في تناول الخمور. و هو ما أكدته المنظمة العالمية للصحة في تقريرها لسنة 1982م، فقد جاء في تقريرها أنّ إنتاج الجعة ارتفع في العشرين سنة الأخيرة بنسبة 400٪ في أفريقيا و بنسبة 200٪ في أمريكا اللاتينية، فيما ارتفع في كامل العالم بنسبة 124٪ فقط. ومما يجب تسجيله هنا أيضا حول هذه السلعة التافهة أنّ أفريقيا السوداء تسجل أعلى نسب الاستهلاك والاستيراد في العالم مقارنة بكثير من دول العالم. و على سبيل المثال لا الحصر نذكر دولة الغابون التي حطّمت الرقم القياسي في استيراد و استهلاك نوع مشهور من النبيذ يصنّع في فرنسا هو الشامبانيا، فقد بلغ سنة 1981 ثلاثة آلاف و مئة و تسع و خمسين (3159) قنّينة لكل عشرة آلاف (10000) ساكن متقدمة على الأمريكيّين بعشر مرات، فهؤلاء لا يستوردون إلا ثلاثمائة و ثمانية و خمسين (358) قنّينة لكل عشرة آلاف (10000) ساكن.

Tidiane Diakité: l'Afrique malade d'elle-même, éditions Karthala paris 1986pp39-40.

8) لقد ساد طابع الغش و الخداع و النهب للبلاد التي تعامل معها البرتغاليون أكبر من طابع الإتجار معها. و قد أدى ذلك إلى حصولهم على مغانم و ثروات كبيرة و أرباح ضخمة تجمعت لدى أفراد العرش البرتغالي و المغامرين و كبار التجار، فقد قدّر ألبوكيرك (1453- 1515) أرباح العرش البرتغالي آنذاك بواحد مليون كريزا دوس cruzados، و أضحت لشبونة أغنى مدينة في أوربا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

Anderson Perry: le Portugal et la fin de l'ultra-colonialisme, Éditions François Maspero paris 1963p22.

9) د رمزي زكي: مرجع سابق ص 25.

10) بالفعل كان البرتغاليون السباقين لتجارة الرقيق منذ سنة 1442م، و قد عرفت هذه التجارة رواجا منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر بنقل الملايين إلى العالم الجديد لاستغلالهم في مزارع قصب السكر و التبغ و القطن إلخ. و قدر المؤرخون عدد العبيد الذين نقلهم البرتغاليون خلال ما يزيد عن ثلاثة قرون نحو البرازيل بين أعوام 1500- 1820م من أربعة(4) إلى خمسة(5) ملايين عبد، و هو ما تعبّر عنه المقولة المشهورة " دون سكر لا توجد البرازيل، و دون أنغولا لا يوجد سكر."

A.perry: op cit p32.

11) د رمزي زكي: مرجع سابق ص .26

12) د علاء طاهر: العالم الإسلامي في الاستراتيجيات العالمية المعاصرة، مركز الدراسات العربي- الأوربي. الطبعة الأولى دار بلال بيروت 1998 ص .318

13) كما حدث مع قبائل الهنود الحمر، فقال خوان جينز دو سبورفيدا (1490-1573) مبرّرا التوسع الإسباني في العالم الجديد و إبادة سكانه: بأنّ الهيمنة الاستعمارية هي واجب تقوم به الشعوب المسيحية على الشعوب الأخرى وأنّ الحرب التي شنّت على الهنود من قبل الشعوب الأوربية المسيحية هي حرب عادلة بسبب من" جرائم الهنود أنفسهم وغبائهم ووحشيتهم" فإنّ الله في رأي دو سبورفيدا، قد خلق الهنود في وضع دوني منخفض وقد حكم عليهم بأن يكونوا عبيدا لشعوب أكثر تقدّما و تطورا مثل الشعب الإسباني، وبالتالي تغدو الحرب هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن ينتشر الدين المسيحي بين أفراد الشعب الهندي. د. علاء طاهر: نفسه ص 318-319.

إنّ عمليات القتل و حرب الإبادة التي شنها الإسبان على شعوب العالم الجديد يعجز اللسان عن وصفها وتقديم إحصاءات عنها، لكن نقتصر هنا على تقديم بعض منها، كأمثلة فقط. فمنطقة سان دومنغو(هايتي) التي وصلها كولومب سنة 1492م وجدها مأهولة بالسكان، قدر عددهم بخمسمائة ألف(500.000) ساكن من قبائل التاينوس، لم يبق منهم في عام 1510 إلا خمسين ألف(50.000) ساكن، و في عام 1530 نزل عددهم إلى ستة عشر ألف (16000) نسمة، و بعد عشر سنوات لم يكد يبقى فيها واحد من أهل البلاد الأصليين. لقد قتلوا جميعا، وبسبب سوء المعاملة فضلوا الانتحار على العبودية. غي دي بوشير: تشريح جثة الاستعمار، ترجمة أدوار الخراط. دار الآداب بيروت، د.ت Kص 150.

أما سكان المكسيك فقد تجاوز عددهم خمسة وعشرون مليون (25.000.000) نسمة في 1519- 1520 لكن بسبب العبودية التي فرضها عليهم الإسبان كانت الوفيات جد مرتفعة لديهم، يضاف إلى ذلك الأمراض التي نقلها الإسبان، كان وراء انخفاض عدد السكان إلى أقل من مليون ونصف (1.500.000) نسمة بين 1650- 1670.

Les migrations humaines Jean-Baptiste Duroselle: L'«INVAZION» Chance ou fatalité? Éditions Plon paris 1992p60.

14) اصطحب كولومب في مغامرته الأولى سنة 1492م كاتب عدل أي موّثق مكلّف بإثبات كتابة و رسميا حيازته للأراضي التي يطمع في امتلاكها.

Antoine Léon: colonisation enseignement et éducation, édition L'harmattan paris 1991 p19.

15) Alphonse gourd: les chartes coloniales et les constitutions des États-Unis de l'Amérique du nord, tome 1, l'imprimerie nationale paris 1885pp194-195.

16) هارالد نويبرت: النظام العالمي الجديد و مشاكل العالم الثالث، ترجمه عن الألمانية د. محمد الزعبي د. ممتاز كريدي، دار الطليعة بيروت الطّبعة الأولى تشرين الأول (أكتوبر) 1996ص 37-38.

17) Jean Descola: les conquistadors, éditions fayard paris 1954 p64.

18) Ibid. pp64-65.

19) كان همّ القادمين إلى العالم الجديد هو الثروة، أي الذهب والفضّة. فمن عام 1503 وهو العام الذي أتمّ فيه كريستوف رحلته الرابعة إلى عام 1560، بلغت كمية الذهب التي نهبها الإسبان مئة وواحد (101) طن ذهب. أما معدن الفضة التي استولى عليها الإسبان من المنطقة فقد بلغ وزنها ستة آلاف وثمانمائة وأثنين وسبعون(6872) طنا أي تقريبا سبعة ملايين(7.000.000) كلغ من الفضّة التي عبرت الأطلسي من 1560 إلى 1600. لقد تلقت إسبانيا في أربعين(40) سنة ضعف مخزون الفضّة الموجود في أوربا قبل كريستوف كولومب.

Jean Descola: op cit p571.

20) د نورالدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الأوربية، دار الفكر 1968م، ص149

21) كان هدف كولومب من مغامرته سنة 1492 الوصول إلى بلاد كاتاي Cathay أي الصين في آسيا حيث إمبراطورية الخان الكبير التي تحدّث عنها بإعجاب الرحالة ماركو بولو (1254- 1323) في كتابه العجائب المنشور سنة 1296م و الظفر بها. وبعد وصوله إلى إحدى جزر الباهاما اعتقد أنّه حقّق مشروعه، و بقي على ذلك إلى رحلته الثالثة سنة 1498 حين تأكّد أنّه لم يصل إلى الصين في آسيا و إنّما وصل إلى قارة كبيرة غير معروفة آنذاك.

Octave Homberg: l'école des colonies, librairie Plon paris 1929p80.

22) هارالد نويبرت: مرجع سابق ص 52.

23) Alphonse gourd: op cit pp 202-203.

24) Ibid : p 201.

25) د رمزي زكي: مرجع سابق ص 24.

26) Jacques Depuis: histoire de l'inde, Payot paris 1963 p 159.

27) A. Perry: op cit p22.

28) Ibid: pp. 25-26.

29) Ibid: pp 28.

30) غي دو بوشير: مرجع سابق ص 146.

31) من هذه الجرائم نذكر على سبيل المثال لا الحصر قيام المجرم فالديفيا Valdivia(1497-1553) أحد مساعدي المجرم السفّاح بيزار بقطع أيدي و أنوف الأسرى من الأروكان (سكان جنوب الشيلي)، ثم قام بإطلاق سراحهم وإرجاعهم إلى أهاليهم.

32) غي دو بوشير: مرجع سابق ص 146.

33) Jean Descola :op cit p414.

34) أدى انتشار الطباعة و صناعة الكتاب في أوربا إلى انتشار القراءة و المطالعة، و منها كتب قصص الرحالة و على الخصوص كتاب العجائب الذي نشره ماركو بولو(1254-1323) في عام 1296م. فرحلة ماركو بولو استغرقت منه أربعة و عشرين(24) عاما، وصل خلالها إلى الصين و اليابان، و أبرز فيه الثراء الفاحش الذي يعيشه ذلك العالم البعيد، الأمر الذي أثار في الكثير من الأوربيين نهم الثراء. فكانت كل الرحلات الأوربية و إلى مطلع القرن التاسع عشر هدفها بلوغ الشرق أو كاتاي(الصين).

Le Point références Grandes explorations- ces voyages qui ont changé le Monde, sept-oct.2014.p6et s.

35) Robert Cornevin: histoire de L'afrique,Tome02, l'Afrique précoloniale 1500-1900.éditions Payot paris 1966p342.

36) من المناطق المكتشفة منطقة كيبك، و هي أكبر المقاطعات الكندية مساحتها 1.540.000 كم^2 كانت تسمى فرنسا الجديدة، أهم مدنها مونريال و العاصمة كيبك التي أسّسها صمويل دي شامبلين (1567-1635) سنة 1608 التي صارت عاصمة فرنسا الجديدة في أمريكا الشمالية. غالبية سكانها من أصول فرنسية، يتكلمون الفرنسية لا زالوا يحافظون على العادات والتقاليد الفرنسية. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة ج 5 ط2 المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت 1990 ص 324.

37) Eugène Guernier, Jacques cartier et la pensée colonisatrice, éditions de l'encyclopédie de l'empire français paris 1946 pp12-13.